

## الإحتلال كغزو معماري\* انطباعات حول كتاب وايزمن «الأرض الجوفاء»

سليم تماري\*\*

يعتبر كتاب إيال وايزمن «الأرض الجوفاء» أول دراسة منهجية لنظام إسرائيل في السيطرة المكانية، إذ يجمع بين الجغرافية السياسية، الهندسة المعمارية، السيميائية، نظريات التمرد، والتقدير للتحويلات في المواقع الأيديولوجية للصهيونية ولتاريخ نظم المستوطنين. والدراسة تجمع بين نماذج مفاهيمية واسعة حول ضبط السكان، وبين الفحص الدقيق والمتأن للآليات التفصيلية لمثل هذا الضبط ولتفكير الاستراتيجيين العسكريين الذين يخططونه، وأيضاً المتواطئون معهم بإرادتهم أو دون إرادتهم. وهؤلاء هم علماء الاجتماعات، والمتعهدون، ومقدموا الخدمات الذين يدعمون رؤيتهم الخاصة، وهم عادةً ما يقدمون خدمات إنسانية للتخفيف من حدة الخسائر البشرية الرهيبة والنتائج الكارثية لهذه الاستراتيجيات.

إن واحدة من أهم السمات التي تستحق التقدير لهذه الدراسة هي الطريقة التي تتموضع فيها المعرفة الهندسية المعمارية والحقول المرتبطة بها في العلوم الاجتماعية، مثل: الهندسة والعلوم السياسية، كشركاء، عن طواعية وأحياناً دون وعي، ضمن عملية الغزو الاستعماري. تشير الدراسة عدداً من القضايا التي فحصت جزئياً، وهي بحاجة للتوضيح، وفيما يلي بعض هذه القضايا وقد طرحت باختصار على شكل أسئلة:

### مختبر الحدود القصوى

باستثناء النقاش التاريخي حول تخطيط القدس، فإنه خلال عهدي الانتداب المتأخر وفترة الضم الإسرائيلي المبكرة، يوجد غياب مدهش لرؤية تاريخية في هذه الدراسة، وكان يمكن لمثل هذه الرؤية أن تغني البحث حول المشهد الطبيعي لو أن تزمينا للاستعمار الصهيوني للأرض قد نوقش خلال مرحلة الاستيطان الصهيوني لفلسطين أو مرحلة ما بعد إقامة الدولة. يقترح وايزمن أننا نشاهد

\* نشرت هذه التعليقات باللغة الإنجليزية في دورية *Jerusalem Quarterly* العدد (٣٨)، صيف ٢٠٠٩.

\*\* سليم تماري: مدير مؤسسة الدراسات المقدسية  
ترجمة: سميح حمودة.

شكلاً متسارعاً من مصادرة الأراضي والعزل، ومن هندسة الحدود المعمارية في العقود الثلاث الأخيرة. يخرج الواحد بالانطباع من المؤلف أن هذه ظاهرة كيفية جديدة يمكن أن يُطلق عليها مختبراً متطرفاً لسياسات التمييز. ويبدو الأمر وكأن الكاتب يقول بأن نظرية الحدود المتعلقة بالغزو تنطبق على الضفة الغربية فقط، ولكن ليس على الجليل، وليس أيضاً على الفترة السابقة من الاستيطان الإسرائيلي في النقب.

## عملية «الاستبعاد»

إن واحدة من أكثر الإنجازات أهمية لاتفاقيات أوسلو من وجهة نظر إسرائيلية حكومية ( كما تم الإشارة إليها في «الأرض الجوفاء» ) هي خلق جغرافيا مكانية للتجزئة، إذ تمّ عبر قطع الصلات بين الفلسطينيين والسكان الإسرائيليين زيادة شرعية الاحتلال. وقد حدث هذا من خلال الانسحاب من أطراف المناطق الحضرية وتسليم السيطرة الإدارية والرعاية الاجتماعية لحوالي ٨٠٪ من الفلسطينيين، في المناطق ألف وباء، للسلطة الوطنية. ومن الناحية الواقعية فقد خلق هذا الظروف المناسبة للسيطرة على السكان عن بُعد، وذلك إمّا من خلال المراقبة وحواجز التفتيش، وإمّا من خلال إدارة ذاتية من قبل نظام فلسطيني غير سيادي.

بيد أنّ العملية غير مكتملة بعد، إذ تبقى المناطق الريفية ج، والمستوطنات، ومنطقة القدس الكبرى ( خارج حدود البلدية ) مناطق سيطرة عسكرية مباشرة، وتستمر القدس العربية بالخضوع لحكم مباشر، ولكنها فصلت عن كل من بقية التجمعات الفلسطينية وعن القيادة الفلسطينية. ولمدى كبير فإن العملية قد أزالّت التجسد الفيزيائي للمواجهة [بين الفلسطينيين والاحتلال الإسرائيلي]، وجعلت بالتالي تكتيكات استراتيجية العصيان المدني ( بالشكل التي شاهدناه في الانتفاضة الأولى ) تكاد تكون مستحيلة. ولا تظهر إستراتيجية مقاومة بديلة منذ ذلك الحين - يعود ذلك جزئياً لغياب المواجهات الجسدية بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال، ولكن يعود أيضاً لغياب القيادة.

مجال واحد اختلف فيه مع وايزمن، وهو يتعلق بقضية وهم السيادة، والذي وضحه عبر سيميائية المرأة ذات الاتجاه الواحد، مثال على ذلك من فترة ما قبل الإنتفاضة وهو وجود وقوة المسؤولين الإسرائيليين على جسر الملك حسين (النبّي) والذين استخدموا مرآة باتجاه واحد لمراقبة (والموافقة أو عدم الموافقة على) مرور الفلسطينيين. لا أعتقد بوجود «وهم السيادة» هنا، والأمور لا تحتاج إلى غياب الشمس ( كما يقول المؤلف ) لإماطة اللثام عن القوة الحقيقية خلف المرأة.

ما كان قائماً في الواقع هو وهم التراضي والذي بموجبه تواطأ الفلسطينيون ( كما في فيلم الحياة الجميلة ) في خداع الذات من أجل جعل الحياة محتملة أكثر، لمعرفتهم بأنهم غير قادرين على حل معضلة السيادة، آخذين بعين الاعتبار علاقات القوة القائمة بينهم وبين الإسرائيليين.

## تطبيع الإحتلال؟

واحدة من نتائج إزالة الوجود العسكري داخل المناطق الحضرية الأساسية كانت خلق إحساس بالحياة العادية. يشير وايزمن إلى تطبيع النظام «العبيثي» بالسيطرة على السكان من خلال نقاط تفتيش تنقوية. يخلق هذا النظام آلية تسليك rountinization لسيطرة عسكرية تعسفية، يتم استيعابها داخلياً من قبل السكان الخاضعين للسيطرة، مما يقود إلى بروتوكولات الموافقة عبر التفاوض على مخارج (تصاريح، استثناءات، وتهريب). لكن نظام تطبيع الاضطهاد هذا واستيعابه يحمل في ثناياه ظروف تقويضه.

إن من مميزات هذا النظام الاعتباطية، واللاعقلانية. فمن المفترض أنه يقوم بخلق آليات للسيطرة من أجل منع الاختراق، ومنع التحايل والخداع. ولكن المبالغة في تحقيق هدفه بالسيطرة على السكان يؤدي إلى شعور هائل بالاستياء، كما يولد ظروفاً للتمرد والاحتجاج. والسؤال الذي يُطرح هنا هو لماذا يلجأ النظام إلى الإذلال الشديد للسكان في حين يهزم مثل هذا الإذلال هدف النظام نفسه في السيطرة الأمنية؟

## الوساطة و'الهندسة العكسية'

إن سؤال الوساطة (أي دور المضطهد في مقاومة ظروف إخضاعه) في تحليل وايزمن إشكالي أيضاً. فنظام السيطرة المتبنى من قبل الكاتب ينتج نظام احتلال واسع الانتشار، فهل التوافق المتحايل للفلسطينيين مع هذا النظام من خلال تخريب بناء قواعد التنظيم والالتفاف حول الحصار، يشكل مقاومة للنظام، أم تطبيعاً للاضطهاد والقهر؟ إنني أطرح هذا السؤال في سياق مشروع وايزمن بـ"تصفيه استعمار الهندسة المعمارية"، والذي يعرفه بـ"الهندسة العسكرية".

في الأرض الجوفاء يطرح وايزمان هذا المفهوم بالإشارة إلى توطين اللاجئين خارج المخيمات، وأيضاً كنتيجة لعملية إعادة نشر الجيش الإسرائيلي خارج غزة. في مواضع أخرى (خلال مشاريع اضطلع بها وايزمن وزملاؤه الفلسطينيون في الضفة الغربية). تم تطوير مفهوم إزالة الاستعمار باتجاه مختلف، تحديداً من خلال مشاريع تدخل يقوم بها مهندسون معماريون وعلماء اجتماعيات من أجل عكس عملية الإستعمار، ومن ضمنها المشروع في مستوطنة بسجوت (في البيرة). هذه مشاريع جريئة وخلّاقة، لكنها تبقى، وحتى اللحظة، مجرد مخططات، وتبقى أيضاً موجزة، وذات بعد فكري—بمعنى أنها غير قادرة بالفعل على تحدي نظام السيطرة، المرتكز على قيام أصحاب القوة بحشد جماعات متواطئة من المخططين، والمتعهدين والمنتفعين. إنها لم تسفر عن رؤية بديلة للواقع الاستعماري الحقيقي على الأرض.

## النظام المبالغ في تصميمه

يرسم وايزمن بمهارة نظاماً معمارياً للسيطرة يتسم بأنه قاهر وحاضر في كل مكان. إنَّ نظام ضبط السكان والسيطرة عليهم من خلال: تقنية المراقبة والرصد، عدد لا يحصى من أنظمة التصفية، أنظمة الطرق المجزأة، مكافحة التمرد من خلال التنبؤ بكل الحالات الطارئة المحتملة للعدو وإفشالها مسبقاً، هو في نهاية المطاف مبالغ في تصميمه. يعمل نظام السيطرة ظاهرياً من خلال مساحات مفتوحة وأخرى مغلقة، تحت الأرض وفي الجو، ومن خلال النظام البيروقراطي للتصاريح والإدارة المدنية. وعبر استثمار هذا المقدار الكبير من المفاهيم من خلال تفصيل قوته المطلقة، يصف وايزمان نموذجاً مغلقاً بإحكام وله قوة الطبيعة، ويظهر وكأن لا مفر منه.

حتى على المستوى الفكري في هذه المنظومة التفسيرية (paradigm) فقد احتلَّ القادة العسكريون السيطرة النظرية عليه، معتمدين على: نظريات نقدية، فوكو، ودولوز، (وماركس، كما في روابط القرى)، ليهندسوا، (وينجاح)، واقع ثورة مضادة. وإذا كان هذا هو الحال واقعيًا، فإنَّ الهندسة المعكوسة، والهندسة المعمارية المتحررة من الاستعمار، هي أشكال خيالية لمقاومة فكرية تأثيرها ضئيل على واقع محكوم ومدار من قبل جهاز عسكري مهيمن. إن ضعف هذه المنظومة التفسيرية (paradigm) التي يقترحها وايزمن يكمن في المبالغة الشديدة في تقدير نظام القمع والسيطرة الشاملة. فهي تنسب لهذا النظام قدرات على السيطرة والضغط مبالغ فيها، وهذا صحيح على المستويين اللوجستي والفكري. إنَّها تترك دون معاناة تناقضات هذا النظام الداخلية، وأنه محكوم لقادة سياسيين ذوي رؤى أيديولوجية ضيقة، والذين يتسبب جشعهم المستمر لاستحواذ الأراضي في الاختناق تحت وطأة التوسع غير المحدود لقدرات اقتصادية محدودة، والذين يبدوون أنَّهم يتصرفون وكأنَّهم مستقلون عن العالم من حولهم. ولكن في النهاية، وكما يقول المؤلف نفسه في "الهندسة المعمارية الديموغرافية"، "أنَّه من الصحيح والجدير بالملاحظة أنَّ السياسات التخطيطية لإسرائيل مع كل المحاولات الدؤوبة، لم تستطع أن ترحل العدد المطلوب من سكان القدس مثلاً خارج حدودها. فحتى أكثر النظم سطوة وقوة لا تعمل داخل مختبر تسيطر على كل أدواته.